منهج الإمام الغزالي من خلال مؤلفاته

الدكتور : خير الدين سيب – جامعة تلمسان

ملخص

إنّ تراث الإمام الغزالي المتنوّع والذي امتاز بالأصالة في التفكير ، والغزارة في الإنتاج ، والتنوع في الاتجاهات ، والعمق في التحليل ، جعل من فكر الغزالي ومعطياته خاصية التكامل والتدرج بالمنهجية إلى الغايات ، إذا ذكر الغزالي فقد تتشعّب النواحي ولا يخطر بالبال رجل واحد ، بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدره وقيمته ، يخطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر، والغزالي الفقيه الحر ، والغزالي المتكلّم ، والغزالي الاجتماعي ، والغزالي الفيلسوف.

اهتمّت بالغزالي وشخصيته وفكره مؤسسات وندوات ومؤتمرات ، ولكنّي أردتّ من خلال هذه الدراسة الوقوف على منهج الغزالي من خلال مؤلّفاته البارزة ،وعلى مراحل تطوّر هذا المنهج ومميّزاته، وبأي ميزان يزن حقيقة المعرفة ؟ وعلى أي أساس يقبل ويرفض ويأخذ ويدع ؟ وأركّز على بعض الأفكار المنهجية ملتمسا آثارها التطبيقية في ميادين شتى كانت أصلا من اهتمامات الرجل .

: منهج الغزالي من خلال بعض مؤلفاته
(تطبيقات)

الحمد لله الذي يفتتح كل رسالة ومقالة , والصلاة والسلام على محمد المصطفى صاحب النبوة و الرسالة , وعلى آله وأصحابه الهادين من الضلالة, أما بعد :

فان الإمام الغزالي قد عاش عصرا زاخرا بالتيارات الفكرية والسياسية المتلاطمة, وشارك في مجالات فكرية واسعة تكاد تنتظم التراث الإنساني لعصره , وخاض تجارب –بل عانى أزمات –روحية وعقلية عميقة تركت أثرها على حياته وفكره . ومن ثم , وذلك أمر طبيعي , العام له ولأثره , وفي بيان طابعه العام وسماته المميزة , وفي تحديد مجال إبداعه أو عنايته المتخصصة : أفقية هو أم متكلم أم صوفي أم فيلسوف ؟ اهو عدو للفكر العقلي يناصر التقليد والإتباع أم هو مفكر عقلي يثق بمقياس العقل ويجاري العقلانيين ويأخذ عنهم : هو مفكر نظري أم هو أيضا معلم وداعيته ومصلح اجتماعي ؟ لقد

حار في ذلك بعض تلاميذه المقربين وكثير من دراسية القدامى والمحدثين , وقد لا يوضح الأمر كثيرا – بل لعله يزيده غموضا وتعقيدا وإشكالا – أن نقول : انه هو هذا كله في وقت معا , وربما كان شيئا وراء ذلك أيضا , انه احد المجددين الذين يبعثهم الله على رأس كل قرن يجددون لهذه الأمة أمر دينها (1). ، واحسب أنه مما يعين على إلقاء بعض الضوء على هذه التساؤلات الملحة , وقد يسهم في حلها , أن نحاول التعرف على منهج الرجل من خلال إنتاجه , بأي ميزان يزن حقيقة المعرفة ؟ وعلى أي أساس يقبل ويرفض ويدع ؟ وبأي أسلوب كان يتوصل إلى النتائج المختلفة فيما خاصة من مباحث متنوعة في العقيدة و الفقه والسياسية والتربية وغيرها , مركزين على بعض الأفكار المنهجية ملتمسين أثارها التطبيقية في بعض هذه الميادين , وربما نلمح إلى تأثيراتها على بعض اللاحقين ممن تابعوا البحث فيها بغية التوضيح فحسب ,فذلك جانب من المباحث أخرى يفرد بجهود مستقلة .

وأبادر الآن فأقول: إن الإمام الغزالي مفكر مسلم سني عقلي , يميل أحيانا إلى مواقف الأشاعرة , ويرتضي لنفسه – وينصح المستعدين – بالمسلك الصوفي . هو مفكر سيني عقلي محض من قمة رأسه إلى أخمص قدمه , ومن أول حياته إلى آخر ها , سيني بمعنى انه يلتزم الوحي , ويدور في فلك الكتاب والسنة ولا يقلد إلاّ المعصوم صلى الله عليه وسلم , وقد يتناول ولكن بقانون , وقد يوافق الشاعرة أو غيرهم ولكن طيقا للدليل , وان لم يستطع الفكاك الكامل من أسرهم في الحقيقة , وقد يرتضي المناهج الصوفية بحثا عن اليقين لنفسه الطموح , وعونا إلى إصلاح المجتمع من حوله , ولكنها صوفية يحاول إقامتها على الكتاب والسنة لا صوفية الغوص والهرمية وان لم يسل تماما من آثارها المتفشية . وهو في الوقت نفسه عقلاني مخلص يؤمن بالمناهج المنطقية العقلية وصحتها ويزن بها كل معارفه عقلية كانت او شرعية او حتى روحية , وهو يدعى الإمامة في ذلك ويزعم انه كفيل أن يجمع الخلق على كلمة سواء يفضل تلك الموازين المنطقية او استجابوا له وأصغوا إليه (2)، وهو يكافح بإخلاص ضد أعداء هذه الموازين ويكشف تمويههم للحقيقة وخطرهم على الحياة الإسلامية سواء استكانوا من الحشوية او الباطنية . ولا تمثل هذه الازدواجية عند الغزالي تناقصا او أشكالا إذ "أكثر العلوم الشرعية عند عالمها عقلية , وأكثر العلوم العقلية شرعية عند عارفها , ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور" (3) نعم قد تنشا صعوبات من التزام هذين الأصليين : ليهما يقوم عند التعارض , والى أي مدى يمكن

الاعتماد على كل منهكا ؟ فيحاول الغزالي اجتياز هذه الصعوبات لينتهي بهما إلى وفاق يبلغه او يعتقد انه قد بلغه , ساعيا في كل أولئك إلى " العلم اليقيني الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب , ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم , ولا يتبع القلب لتقدير ذلك " (4)

كيف تحرى الرجل هذا اليقين , وما مسالكه إليه ؟ يحسن بنا الآن إن ننتقل من هذا التعميم إلى تناول أفكار منهجية محددة مع استطلاع آثارها في مجالات بحثه المختلفة في العقيدة و الفقه وغيرهما من ألوان البحث الشرعي والعقلي .

أولاّ : الإستدلال المنطقي :

درس الغزالي الفلسفة وأحسن عرضها باتفاق دارسيه, تلك الفلسفة التي قدمها الشيخان (الفارابي وابن سينا)ذات الملامح الارسطية مع شوائب أفلطونية , والتي غلبت على عقول أكثر المثقفين في عصره حتى لربما أدى ذلك بالبعض منهم إلى أن "يكفر بالتقليد المحض " (5)ثم قسا في نقدها وردها حتى رمى أصحابها بالكفر و البدعة , وهو إنما يعني بالمحل الأول الجانب الأهلي منها (أما المنطقيات فلا يتعلق شيء منها بالدين نفيا وإثباتا بل هو النظر في طرق الأدلة و المقاييس , وشروط مقدمات البرهان , وكيفية تركيبها , وشروط الحد الصحيح ....وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر ,بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة وإنما يفارقونهم بالعبارات و الاصطلاحات...)(6) وكل ما اخذ على القوم هو أنهم لم يستوفوا شرائط البرهان في مباحثهم الأهلية ....وهكذا أباح الغزالي المنطق في أجزاء أخرى من الفلسفة المتداولة , وعاب على من يرفض الحق لمجرد كونه في يد مخالفه , بل دعا إلى استعماله في كافة المباحث , وسيصرح فيما بعد بإيجاب استعماله على الباحثين حتى في المباحث في النظامية ببغداد , يخطط لمشروعه في درس الفلسفة ونقدها , وظل على هذا الرأي حتى آخر حياته .

وقد ألف في هذه المرحلة كتابين من ابرز كتبه هما " محكّ النظر، ومعيار العلم " ثمّ ألّف بعد سياحته واشتغاله بالرياضة الروحية رسالته الهامّة " القسطاس المستقيم " (7)والكتابان الأولان يمتازان بجودة العرض للمسائل المنطقية , ووضوح الأسلوب وسلاسته, والإفاضة في بعض المباحث اعتمادا على ما أفاده من مباحث الدلالة و التعريف و الاستدلال لدى المتكلمين , بالإضافة إلى ناحية أخرى هامة

وهي معالجة الأسباب التي من اجلها يعجز العارف بالمنطق عن مراعاة شروطه في مباحثه التطبيقية أحيانا كما وقع الفلاسفة في مباحثهم الثلم واحكمها امن الشيطان . ومواقع ثلمه عشرة قد جمعتها وشرحتها في كتاب "محك النظر "وكتاب" معيار العلم " إلى غير ذلك من الدقائق في شروط الميزان ...فان أردت معاقد جملها ألفيتها في كتاب المحك , وان أردت شرح تفاصيلها وجدتها في كتاب المعيار ....." (8)

أما كتاب"القسطاس "كتاب مستقل بنفسه كما يقول الغزالي في المنفذ بعد الإشارة إلى مؤلفاتها عن الباطنية (9) مقصود بيان ميزان العلوم وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم ،ونود الآن ذكر بعض ملاحظات على هذا الكتاب سعيا إلى تعرف منهج الاستدلال العقلي لدى الإمام الغزالي وأسس

ثقته به :

1- إن الإمام الغزالي يحاول في هذا الكتاب استخراج الإشكال القياسية الحملية والشرطية من القران الكريم مباشرة , زاعما أن القران يشير إليها (وزنوا بالقسطاس المستقيم)وانه إنما يعينها في مثل قوله سبحانه (لقد أرسلنا رسلنا بالبيانات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)(10)ويدعو محاوره من أهل التعليم إلى أن يعلم (يقينا إن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله تعالى وكمعرفة ملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته ...فان الله تعالى هو المعلم الأول , والثاني جبريل , والثالث الرسول صلى الله عليه وسلم)(11)ثم يستخرج في براعة كل أمثلته من القران الكريم ليبين إن استخدام هذه الأقيسة الصورية أمر مشروع ومندوب إليه في طلب المعرفة الحقة . وهذه محاولة ابعد مدى من محاولة ابن حزم في التقريب , إذ يحاول تحوير المتداولة بين العرب .

2- يهتم الغزالي في هذا الكتاب بأمر ابعد من الصحة الصورية وشروط الإنتاج الشكلية إذ يفحص مواد القياس نفسه , ويعتبر ذلك هو الصنجة او العيار الذي يؤكد صحة الوزن به "فان تشككت فماذا اصنع حتى يزول الشك ؟ قلت : خذ عياره من الصنجة المعروفة عندك كما فعلت في ميزان الذهب والفضة . فقال : كيف أخذ عياره وأين الصنجة المعروفة في هذا الفن قلت الصنجة المعروفة هي العلوم الأولية الضرورية وأين الصنجة الحس او التجربة او غريزة العقل ....." (12)إن كل أمثلة الغزالي او جلها تدل على انه يرسى قاعدته هذا القياس على الأوليات الضرورية ....فهل نأتي بمثال واحد هنا ...انه احتجاج إبراهيم على نمرود في نهاية الحوار بينها (فان الله يأتي بالشمس من المشرق

فات بها من المغرب "الذي أثنى عليه الخالق نفسه كما يقول الغزالي-(وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم قومه) وشرح الغزالي هذه الحجة بقوله : "وكمال صورة هذا الميزان إن تقول : كل من قدر على إطلاع الشمس فهو الآلهة , فهذا اصل . والهي هو القدر على الإطلاع وهذا اصل آخر . فلزم من مجموعهما أن إلهي هو الإله دونك يا نمرود . فانظر الآن هل يمكن أن يعترف بالأصلين معترف ثم يشك في النتيجة ؟ او هل يتصور في أن يشك في هذين الأصلين شاك ؟ فان قولنا الإله هو القادر على إطلاع الشمس لا يشك فيه لان الإله كان عندهم وعند كل عبارة عن القادر على كل شيء , وإطلاع الشمس هو من جملة تلك الأشياء" (13)وهكذا فان المواد التي يتركب منها القياس دوما في تلك الأمثلة القرآنية هي أوليات ضرورية تستند إلى العيان و البداهة الحسية , او التجربة المكررة المقبولة , او إلى القضايا البينة بذاتها أمام العقل لا يكاد يشك فيها عاقل فهي كما يعبر الغزالي من غزيرة العقل او من أوائل العقل ....وذا تم التسليم بالصحة الصورية للشكل القياسي , وكانت المواد التي يتركب منها صحيحة أيضا وجب التسليم بالنتيجة ....ويورد الغزالي لطمأنة محاورة نماذج من استخدام هذا الميزان في العلوم المختلفة في العقيدة وفي الفقه وفي الحياة العادية منتهيا يتحلل كل المقدمات إلى عناصرها الأولية الضرورية من البداهة العقلية والحس والتجربة .

وبعد مزيد من التحليل و الحوار يضيف الغزالي مصدرا آخر للمواد السابقة التي تتركب منها البراهين وهو "الأخبار "و المتواتر منها يفيد اليقين وغيره يفيد الظن , وهو أمر طبيعي من مفكر مسلم يعيش في بيئة عنيت بالمنهج التاريخي رواية ودراية , هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فهو يدعوا إلى تطبيق تلك الموازين في كافة العلوم وأهمها في البيئة الإسلامية الفقه و الكلام , وهنا يضرب الإمام مثالا فقهيا : "وكذلك كون النبيذ حراما ليس واضحا بنفسه ؟, بل يعرف بأصلين : أحدهما انه مسكر , وهذا يعلم بالتجربة . والثاني : إن كل مسكر حرام وهذا بالخبر الوارد عن الشارع – صلى الله عليه وسلم – (14)وهذا يفيد الظن لان إحدى مقدمتيه ظنية غير انه كاف في الأمور الفقهية العملية , أما الاعتقاديات فيورد منها الإمام مثالا آخر – مثال إبراهيم مع النمرود – ويتبعه بالتحليل حتى يبلغ به عناصره الأولية الضرورية (15)إذ لا مغزى في الاعتقادات عن اليقين ...لإثبات وجود الله تعالى وعلمه . كون المسالة الظنية في الفقه حديثا آخر ربما نعرض فيما بعد .....

وينتهي الغزالي بمحاورة إلى تسليم :"لقد أكملت الشفاء وكشفت الغطاء و أتيت باليد البيضاء "غير أن الرجل ما زال يعاني من بعض الشبهات و يخاف من مولاة السابق صاحب الموت و يخشى مفارقة الأهل و الأصدقاء فيعنيه الإمام على أن يجتاز هذه العقبات و ينفض عن نفسه هذه المخاوف إذ يكشف له عن تضليل الباطنية وسوء استخدامهم للموازين المنطقية حتى يقول الباطني : الآن هو هذا يلوح لي مخايل الحق و تباشيره من كلامك فهل تأذن لي في أن اتبعك ...؟ فيجب الغزالي جواب الخضر : هيهات انك لا تستطيع معي صبرا (16). ويفارقك ليكاد وحده تجربة التخلص2 من العلائق و العوائق ويرتفع بنفسه عن التقليد إلى يفاع الإستبصار .

وهكذا يحكى لنا كتاب القسطاس قراءة غزالية فلسفية للقران تنتهي إلى نتائج فلسفية ذات طرافة وأهميته , تركز على الطبيعة المنهجية للهداية القرآنية : ولولا اشتمال القران على الموازين لما صح تسمية القران نورا , لان النور ما يبصر بنفسه ويبصر به غيره , وهو نعت الميزان , ولما صدق قوله (ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين)فان جميع العلوم غير موجودة في القران بالتصريح ولكن موجودة فيه بالقوة , لما فيه من الموازين القسط التي تفتح أبواب الحكمة لا نهاية لها (17)

ولكن إذا كان الدليل النقلي والعقلي هذا ممتزجين وصورة .إذا كانت الشرعيات عقليات او أكثرها , والعقليات شرعيات لدى العارفين ....فهل نجح الإمام الغزالي في تطبيق أفكاره المنهجية هذه من الناحية التطبيقية وخاصة أخرى ذات اثر على الغزالي وغيره من المتأخرين حاول الرجل أن ينفضها عن نفسه في نهاية الأمر , وهي فكرة الدور

ثانيا : – الكلام بين النقل العقل , وفكرة الدور الاعتزالية :

يبدأ الغزالي كتابة المشهور في علم الكلام "الاقتصاد في الاعتقاد "بالثناء على أهل السنة , وهو يعني بذلك الأشاعرة فيها احسب , الذين "اطلعوا على طريق التلفيق بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول , وتحققوا ألا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد و اتباع الظواهر ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر,وإن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ما توا به إلا من خراب الضمائر

, فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحق والاحتياط, بل الواجب المحتوم في قواعد الإعتقاد ملازمة الاقتصاد والإعتماد على الصراط المستقيم (18)فهل التزم الغزالي حقا الاقتصاد بين طرفي الإفراط و التفريط وهل سلك الصراط المستقيم فيما يتعلق بالعلاقة بين العقل في هذا الكتاب ؟

الواقع أن الكتاب لا يمثل الغزالي وأفكاره المنهجية عن علم الكلام تلك التي تبناها بعد فترة الرياضة و الاعتزال عن الناس : إن الكتاب يتميز بذلك الوضوح و الأحكام المعروف عن كتب الغزالي , ولكنه فيه اشعري خالص تقريبا، يهاجم المعتزلة وغيرهم من خصوم المذهب , بخلاف موقفه الذي انتهى إليه في مرحلته الأخيرة وتعكسه رسائله : فيصل التفرقة , وإلجام العوام , والقسطاس المستقيم , وقواعد العقائد من الأحياء , واليه الإشارة في المنقذ .

لقد كان الإمام الغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد واقعا تحت تأثير الفكرة الاعتزالية التي تسربت إلى مدارس عدة ومنها الأشعرية والقائلة بان العقل اصل للنقل , فلا ينبغي الاعتماد على الدليل النقلي هربا من الدور الفاسد كذلك . وقد حصرت الفكرة الأولى مجال الأدلة النقلية فيما يعرف بالسمعيات تقريبا وكادت تذهب الفكرة الثانية بحجية الدليل النقلي دون تمييز.

وقد نشأت فكرة ((الدور)) هذه في الوسط الاعتزالي , ونجدها بأسسها ونتائجها مفصلة فيما بين أيدينا من كتب القاضي عبد الجبار وأبي الحسين البصري (19)ثم انتقلت إلى غيرهم . وخصوصا إلى الأشاعرة ربما على يد الجويني (20)وجاء تلميذه الغزالي ليتبنى الفكرة أيضا في مرحلة الأولى : يقول في الاقتصاد إن ما لا يعلم بالضرورة ينقسم إلى ما يعلم المعلوم بدليل العقل دون الشرع فهو حدوث العالم ووجود المحدث وقدرته وعلمه وإرادته , فان كل ذلك ما لم يثبت الشرع , إذ الشرع يبنى على الكلام , فان لم يثبت كلام النفس لم يثبت الشرع , فكل ما يتقدم في الرتبة على الكلام النفس يستحيل إثباته بكلام النفس ....وأما المعلوم بمجرد السمع فتخصيص احد الجائزين بالوقوع ...وأما المعلوم بهما فكل ما هو واقع في مجال العقل ومتأخر في الرتبة عن كلام النفس كمسالة الرؤية وانفراد الله تعالى بخلق الحركات و الاعراض كلها وما يجري هذا المجرى .... (21)

ويمكن القول بان فكرة الدور هذه بآثارها التي تزايدت على الرازي وأمثاله كادت تجعل من علم الكلام فلسفية عقلية بحتة , وهي من السمات المميزة لما يعرف بكلام المتأخرين . وقد كانت هب الباعث

الذي حدا بابن تيمية إلى تأليف كتابه (درء تعارض العقل والنقل) لتنفيدها وتتبع آثارها لدى متأخري الاشاعرة وخاصة الرازي و الآمدي .

والواقع أن فكرة الدور تهويل لا طائل وراءه فيمكن للمرء أن يبدأ بإثبات النبوة عن طريق النظر في المعجزة فإذا ثبتت عنده تقبل كل ما يأتيه هذا النبي ولا دور ولا تناقض وهذا الطريق أكثر الخلق كما أوضح الإمام الغزالي في كلامه عن حقيقة النبوة في المنقد(22) وفي غيره (23)على أن القران لم يقدم للناس العقائد قضايا مجردة عن دليل الأحكام ا و الغائية ؟, ودليل الإمكان وغيرها ....وهذا ما فطن إليه الإمام الغزالي وكرره في كتبه المتأخرة من أن هو بيان الأدلة العقلية الواردة في القران بموادها وصورها هذا التمييز الحاسم إذن بين هو نقلي وعقلي ؟

ويمكن القول بان الإمام الغزالي قد طرح عنه آثار هذه الفكرة وأعاد النظر في قيمة الكلام الرسمي الاسكولائي ومناهجه , وحاول تطبيق ذلك جزئيا في كتاب العقائد من كتب الأحياء وفي كتابة جواهر القران وكذا في الرسائل الأخيرة اشرنا إليها آنفا في عقائد الملة وهذا وجه جديد للعلاقة بين الرجلين الكبيرين غطت عليها علاقة المواجهة والخصومة بين التهافت وتهافت التهافت, واكتفي هنا بالإشارة إلى معالم الموقف الغزالي الجديد , ويعرف القارئون لكتاب ابن رشد مواضعها منه :

1- نقد الكلام الرسمي التقليدي وروحه الجدلية التي قد تولد من الشكوك أكثر مما تعطى من اليقين (24)

2- تحريمه الاشتغال بالكلام إلا لواحد لديه شبهة او متخصص في رفع الشبه (25)

3- الدعوة إلى كلام جديد يستند إلى مناهج القران يسميه علم التوحيد الحقيقي (26)

4- مخالفة الاشعرية و التسامح مع المعتزلة(27) و الميل إلى موقف السلف (28).

5- منع تكفير الغير لمخالفته أصولا مذهبة أو لمجرد جهلة بها و قصر التكفير على التكذيب القاطع للرسل (29).

6- تفاوت مراتب الناس في المعرفة بالدين : أعلاها أهل البرهان اليقيني , ويليهم العوام وأدناها أهل الجدل(30) .

7- إيثار الإعجاز التشريعي على غيره من ضروب الإعجاز(31) .

8- الدعوة إلى وضع قانون للتأويل(32) .

هذه الأمور – وغيرها – تشكل موقفا جديدا من علم الكلام , وترسي أساسه على البراهين القطعية في القران الكريم , وتكشف ما انتهى إليه هذا العلم على يد المتأخرين ولا ينبغي أن ننسى هنا أن عمل الغزالي في الرد على التعليمي في الفضائح وعلى الفلاسفة في التهافت هو عمل في نطاق علم الكلام لكنه يحتاج إلى تناول خاص , وقد تفضل أساتذته متخصصون بذالك و الحمد لله . هذا عمل الغزالي في الكلام فما أثره في أصول الفقه ؟

ثالثا : – الغزالي وأصول الفقه (فكرة التواتر)

اهتم الغزالي بالفقه وأصوله فألف فيهما شابا يافعا واستمر على ذلك حتى قرب وفاته , وأصول الفقه هو منهج التفكير في القضايا الشرعية فهو وثيق الصلة بموضوعنا . وقد الغزالي بأنه الشافعي الثاني لمكانته الفقهية , ويعرف المتخصصون قيمة "المستصفى"ولكن شهرته لدى الجمهور الصوفي بعمله في الأحياء ولدى المثقفين بعمله الفلسفي في التهافت غطت على دوره البارز في أصول الفقه . وقد إشتغل الغزالي بهذا العلم على امتداد حياته القصيرة والعريضة فألف في شبابه "ومعنى ربط الحكم بها , وما يتركب على مراعاته العلل من الحكم والمصالح . ثم ألف قبل وفاته بعاملين كتاب المستصفى ومن ممارسة الفكر إلى الإغريق في التأمل الروحي والذكر . وللمستصفى دور بارز في تطور هذا العلم فطن إليه السابقون كبن خلدون هو غيره ونورد هنا بعض ملاحظات حول ذلك :

1-كان للمعتزلة دور رائد في ميدان أصول الفقه , وقد أسهمت بحوثهم في تأسيسه وقد أفاد اللاحقون منها على اختلاف مذاهبهم غير أنهم خلطوا تلك الأبحاث الأصولية بمنطلقاتهم المذهبية الكلامية كالتحسيس والتقبيح والصلاح والأصلح ونحوها كما يعكسه كتاب "المعتمد "لأبي الحسين البصري الذي شرح فيه كتاب "العمد " لشيخه عبد الجبار وكلاهما معتزلة تولى منصب قاضي قضاة بغداد فلما جاء الغزالي –يسبقه في ذلك شيخه الجويني – عمل على تخليص المباحث الأصولية مما شابها من الأفكار الاعتزالية المذهبية وإقامة على أساس المقبولة لدى شيوخ أهل السنة .

2-عني الغزالي في المستصفى–بعد شفاء الغليل – بمباحث العلة باعتبارها أهم أركان القياس , وبنا نظرته عليها على أنها "العلامة "أو "الأمارة "التي يوجد الحكم الشرعي عندها لا بها(33) , جريا على ما شاع في الكلام السني وخصوصا الأشعري بشان إطلاق تأثير القدرة الإلهية وتدخلها المباشر في

كل حالات الفعل والإيجاد , وقد انتقل هذا التحليل لمفهوم العلة إلى أوساط أخرى ليست في الغالب أشعرية ,كفقهاء الحنفية الذين كانوا قد عرفوا العلة بأنها الباعث حيث مالوا إلى أنها الإمارة , وعرفها صاحب مسلم الثبوت(34) بأنها "الوصف الذي شرع الحكم عندها "وان تردد البعض منهم في ذلك، وعادوا إلى مفهومهم الأول وربما تعرض لأمر يتصل بهذه النقطة فيما بعد .

3- اعتبر الغزالي المنطق وموازينه في الاستدلال أمرا ضروريا لدارس أصول الفقه , فضمن المستصفى مقدمة منطقية أثارت عليه غضب الكثيرين من أهل السنة الذين يحاربون هذا العلم او يكرهون خلطه بالعلوم الشرعية . ولكنه كان مستقيا مع نفسه التي جرى عليها من مقتل حياته إلى نهايتها في هذا الشأن كما سبق التعرض له .

4-درس الغزالي موضوع المصلحة بعمق في هذا الكتاب وما يرتبط بها من فكرة المقاصد الشرعية , التي نماها وفصلها على أسس غزالية واضحة الفقيه الأندلسي الشاطبي في للموافقات وهو وان لم يعتبر المصلحة دليلا مستقلا جريا على طريقة الإمام الشافعي قد فصل وأبدع في أمر الاستصلاح كما توسع وأفاض في مباحث , وكأنه جاء بعد نمو الفقه المعتمد على أصول المنقولة واستقراره , كان يرى أن نمو الفقه فيما يستقبله من حياة إنما المشابه . وعلى الاستصلاح الذي يستحضر فيه الفقيه مقاصد الشرع , بالمقاصد التي دلت وقائع عديد من الواقعة الجديدة سواء كانت جلب منفعة او دفع مضرة بالمقاصد التي دلت وقائع عديدة على مراعاة جنسها توصلا إلى تعرف الحكم الشرعي لتلك الواقعة ويمكن أن نحمل مذهب الشافعي في المصالح فيما يلي :

أ - تأكيده أن الأحكام الشرعية كلها راجعة إلى حفظ وجودا أو إبقاء (35)وهو في هذا يختلف عن بعض من سبقوه من أصوليي الشافعية الذين أداروا الأحكام على معنى التعبد , واعتبروها غير معللة بعلة , وفي وقد اسند الزنجاني هذا الرأي إلى الشافعي نفسه والى علماء مذهبة , ولكن الغزالي أوفي هذه المسالة بيانا حين استقضى أنواع المصالح واستبدل على حجة هذه الأنواع على نحو قطعي , وبين العلاقات بينها .

ب - إن المصالح إنما تعمل في شكل القياس مادام الفقهي ذي الأصل المحدد المعين وفائدة أعمال المصلحة في إطار القياس أن نضمن شهادة ... وقد جرى الشاطبي على ذلك أيضا خلافا لما نزع إليه

الطوقي من أعمال المصالح ولو عارضها نص من النصوص , وهو أمر ينفرد بين الفقهاء وان استهوى بعض الكتاب المحدثين (36)

وهناك ناحية أخرى في المستصفى تعتبر على جانب كبير من الأهمية من الناحية المنهجمة ونعني بها فكرة الغزالي بشان تعدد الحق في الأمور الفقهية العملية خلافا للقائلين بتعينه ووحدته . وما يتركب على ذلك من أن كل مجتهد مكلف بالنادي إلى ما يوصله إليه

اجتهاده , وهو بهذا الاعتبار مصيب على كل حال مستدلا على ذلك بحديث (لا يصلين احدهم العصر إلا في بني قريظة)حيث لم ينكر النبي ص على أي من الطائفتين. ولعمري إنها لفكرة جليلة تتساوق مع الروح السمحة لهذا الإمام العظيم

وأخيرا فان الغزالي الذي كان يطلب اليقين والذي لاحظ الطبيعة الظنية للقياس الفقهي قد انتهى إلى فكرة نماها الشاطبي فيما بعد في مفتتح كتابه "الموافقات "هي فكرة التواتر شبه معنوي ...وكان العلماء يقسمون التواتر إلى لفظ تتفق فيه ألفاظ الروايات المتعددة ومعنوية تختلف فيه الألفاظ أو ببعضها ولكنها تنتقل قصة أو واقعة واحدة , أما شبه المعنوي فهو أن تروي مرويات متعددة تحكي وقائع متعددة على نحو متواتر ذلك صحة المعنى بين الواقع المختلفة وهو ما اسماه الشاطبي التواتر شبه المعنوي وبني عليه أن وصول الفقه أي أدلة الكلية قطعية (37)ولعل في هذا ما يدعم القياس الفقهي الذي يتركب من مقدمات ظنية راجحة إذ ينتهي إلى اصل اعتمده الشارع

وبالله التوفيق

الهوامش

1- أمين الخولي – المجددون في لإسلام –ص:14
2- القسطاس –ص:58.
3- الرسالة اللدنية ص: 106.
4- المنقذ ص:4.
5- السالف ص: 21.
6- السالف ص: 24.
7- ولا يغيب عن ذهن القارئ كتابة المقدّمة المنطقية للتهافت في المرحلة الأولى ، والمقدّمة المنطقية للمستصفى في المرحلة الثانية
8- القسطاس –ص: 49.
9- المنقذ ص:42.
10- القسطاس–ص:14
11- القسطاس ص:15.
12- القسطاس ا 23.
13- ا القسطاس 12-22.
14- القسطاس ا ص:26.
15- القسطاس ص: 62-27 ، 78.
16- القسطاس ص:79.
17- القسطاس ص:69.
18- الاقتصاد ص:3.
19- ينظر: المغني لعبد الجبار- ج:15/26-128،29-132، والمعتمد للبصري ج:2/886-887.
20- ينظر: الجويني إمام الحرمين لفوقية حسين (أعلام العرب) 144.
21- الاقتصاد 102-103.
22- المنقذ 52-59.
23- ينظر القسطاس 58.
24- ينظر القسطاس 63, 76 والفيصل 145.
25- فيصل التفرقة 174-175 (إن تركنا المداهنة ومراقبة الجانب صرحنا بأن الخوض في الكلام حرام لكثرة الآفة فيه إلا...) ص 174.
26- الجام العوام 263-273 والرسالة اللدنية 107.
27- فيصل التفرقة 145-147.
28- الجام العوام 274-289.
29- السابق 171 وما بعدها .
30- القسطاس 171 وما بعدها .
31- القسطاس 58.
32- فيصل التفرقة 58-65.
33- المستصفى 2/342.

34- أصول البزدوي , 260/2.

35- المستصفى 286/1-287 وانظر له تخريج الفروع على الأصول له ص 38.

36- islamic legal philosophy , by Dr . khalid mes' ud , p 168 .

37- ينظر المستصفى والموافقات .